## ـ 5 ـ

# الحادي عشر من سبتمبر فرصة ضائعة

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية على البنتاغون والبرجين التوأمين، تطلب الأمر من الرئيس بوش ستة أيام فقط ليفوض إلى قيادة الجيش الأمريكي مهمة الاستعداد لشن الحرب على شبكة القاعدة ونظام طالبان في أفغانستان. الحقيقة الكاشفة أيضا أن الرئيس أصدر أمرا، تحت تأثير نائبه تشيني ووزير الدفاع رمسفيلد، بوضع سيناريوهات لحرب تشن على العراق(1). قال الكثيرون إن الحادي عشر من سبتمبر كان نقطة تحول في تاريخ الولايات المتحدة، وكانت ستصبح كذلك. لولا أن أسلوب رد إدارة بوش أبّد نمطا مألوفا ومتبعا. فعلى الرغم من أن في «الحرب على الإرهاب» بعض المكونات الجديدة المحزنة ـ «الحق» في شن ضربات عسكرية استباقية، مثلا ـ إلا أنها ليست جديدة كلية. فهي تمثل ما توقعه الإرهابيون بالضبط. فضلا على أنها تعبر، على مستوى متضخم كثيرا، عن الافتراضات المسيحانية لـ«الأمة المنقذة». و«تخليص العالم من الشر» برنامج يحمل المسيحانية الأمريكية إلى حدود قصوى متخيلة.

## نقطة انطلاق جديدة:

## مواطن الضعف والانكشاف أمام الخطر

هل كان ثمة بديل؟ ربما لم يتوفر. ومع ذلك، كان بالمستطاع اتخاذ مقاربة مختلفة كليا: كان من الممكن أن يمثل الحادي عشر من سبتمبر لحظة واعدة، تلك اللحظة التي يشير إليها المسيحيون بوصفها لحظة تحد وتحول حين يدعى الذين آمنوا بالدين إلى العيش معه بطريقة خلاقة. وكان بمقدور الرئيس بوش، الذي لا يتردد في الاعتراف علنا بأنه مسيحي ملتزم، أن يقود أمته بطريقة تعبر عن قابلية الدين للمصالحة والتسوية وإعادة بناء السياسة العالمية.

تحت التأثير المباشر والفوري للحادي عشر من سبتمبر، كان بمقدور كاتب خطب الرئيس أن يجعله يخاطب الأمة على النحو التالي:

أيها المواطنون

لقد أصبنا وألحقت الهجمات على البرجين التوأمين ومبنى وزارة الدفاع الأذى والضرر بكل فرد فينا. مشاعر الغضب والحنق تملأ صدورنا؛ إذ لم تتعرض بلادنا لمثل هذا الهجوم الخارجي طوال مئتي سنة.

لذلك، فإن كل شيء فينا يصرخ مطالبا بالثأر. لكن هل يجب أن نذعن لهذه الصرخة؟ إنها أسهل طريقة. وأنا واثق أنكم ستقدمون دعمكم وتأييدكم إذا حشدت جنودنا لمطاردة الإرهابيين وأولئك الذين ساعدوهم أينما اختبؤوا.

لكنني أقترح اتخاذ سبيل آخر. ربما تذهلون ـ أو تغضبون ـ لسماعه أول وهلة. إلا أنني أطلب منكم التفكير به بترو.

لقد أظهرت لنا الهجمات شيئا بحاجة إلى أن نعرفه: لدينا مواطن ضعف تعرضنا للخطر. أجل نحن بلد مفتوح ومكشوف. نحن أمة مرتبطة بباقي الأمم في شتى أنحاء العالم. لذلك، يمكن للغرباء أن يأتوا إلى بلادنا. يمكنهم أن يختطفوا طائرات ويوجهوها نحو ناطحات السحاب. بالطبع، نستطيع تحسين إجراءاتنا الأمنية. لكن حقيقة ما نعانيه من مواطن ضعف تبقى أمرا واقعا.

إن تجربة هذه الوحشية الهائلة، في لحظة المعاناة والألم، هي أيضا لحظة حقيقة انكشاف مواطن الضعف التي نشترك فيها مع الآخرين. الآن يمكننا أن نتعاطف مع الشعوب الأخرى التي عاشت ويلات الحروب الأهلية طوال سنين وحتى عقود. يمكننا الآن أن نفهم شعور الذين قصفت مدنهم وتحولت إلى أكوام من الرماد (وبعض القنابل المستخدمة نحن صنعناها وزودنا بها المعتدين). نشعر بذلك كله الآن بطريقة مكثفة وخاصة.

ما الذي يستتبع هذا النوع من المعرفة التي كلفتنا هذا القدر من الحزن؟ هل نحاول إغلاق نافذة الضعف والانكشاف أمام الخطر؟ في هذه الحالة ستتحول بلادنا إلى سجن. وسيعني ذلك خيانة ميراث نحتاج إلى احترامه مهما كان الثمن: العيش كشعب حر على أرض حرة. ونحن ننوي أن نبقيها كذلك.

وهكذا، سنقول للعالم: سوف نحاول أن نتعلم من هذا الدرس المرير. لا توجد مكانة خاصة للولايات المتحدة. نحن، مثل غيرنا من الشعوب الأخرى، ضيوف على هذا الكوكب، بشر فانون، يتصل بعضنا ببعض، ويعتمد بعضنا على بعض.

لذلك، يجب ألا نعد «أسلوب حياتنا الأمريكي» ميزة يجب الدفاع عنها بأي ثمن أمام بقية العالم، بل علينا المحافظة عليه بطريقة يمكن أن يصبح فيها أسلوب حياة للشعوب الأخرى أيضا، إذا رغبت فيه.

الطريقة التي نرى فيها أنفسنا كأمة يجب أن تتساوق مع الطرق التي تعمل عبرها الطبيعة ذاتها. طريقة تحترم تنوع الثقافات والأديان، وتحمي حقوق الشعوب كلها.

لقد أذهلنا الكره الذي كشف عن نفسه في هذه الهجمات. لكننا بحاجة إلى معاينة الأسباب التي مكنته من النمو والتفاقم. نحن بحاجة إلى العثور على إمكانيات إصلاح الظروف التي أسهمت في تخطيط وتنفيذ هذه الجرائم البشعة.

هذا يقتضي ضمنا الاعتراف «وتلك أصعب مهمة أطلبها منكم اليوم ـ بأن مواطن ضعفنا التي عرضتنا للخطر هي أيضا تعبير عن فشلنا في لقاء الشعوب في أصقاع العالم الأخرى بوصفنا وسطاء نزيهين نلبي احتياجاتها. علينا قبول مسؤوليتنا عن الظلم الذي يسبب هذا القدر من المعاناة والتبريح. الشر لا يكمن هناك فقط؛ بل موجود معنا وفينا أيضا.

تشبثنا زمنا طويلا بإحساسنا بالبراءة الوطنية. وها هو الآن دفين تحت أنقاض البرجين التوأمين في نيويورك.

## لماذا أقترح هذا التحول في أسلوب الرد؟

لا لأننا أصبحنا جبناء فجأة، بل لأننا اكتسبنا رؤية عرفنا بها أن أمننا مرتبط بأمن جميع الشعوب. وأن سلامنا موصول بسلامها. الحرية التي نقدرها ونحترمها لا يمكن أن تبقى دون حريتها.

سوف يقول العديد منكم والغضب يملأ الصدور إننا فقدنا شجاعتنا وأذعنا للإرهابيين.

**هذا ليس صحيحا.**

أمريكا تبقى أقوى أمة في العالم. لكننا أقوياء بما يكفي للاعتراف بمواطن ضعفنا. نحن صادقون بما يكفي لقبول هذا التحول غير المسبوق. ومن ثم لا نسمح للإرهابيين بإملاء الرد الذي سنتخذه.

> هل هذا يعني أننا سندعهم يفلتون من العقاب؟ لا أبدا! فهم قتلة ويجب أن يحاكموا أمام محكمة دولية. نحن ندعو شعوب العالم كافة، التي شاركتنا معاناتنا، إلى مساعدتنا في كشف ومعاقبة القتلة ومساعديهم. ونظرا لأن لدينا سببا وجيها للاشتباه بأنهم مسلمون، ندعو الفقهاء المسلمين لمساعدتنا. نحتاج إلى فتوى يصدرها العلماء والزعماء المسلمون توضح أن هذه الجرائم متناقضة مع روح الإسلام. ويمكن للخبراء المسلمين مساعدتنا في إنشاء محكمة دولية نعرض أمامها دعاوينا ونقدم أدلتنا وبيناتنا.

الإرهاب واحد من الأوبئة الكبرى التي تجتاح عصرنا. نحن لا نزعم قدرتنا على استئصاله، خصوصا عبر شن الحرب عليه. لأن الشر ـ والإرهاب شر مستطير ـ لن يختفي من وجه الأرض وفقا لرغباتنا وأمانينا. سوف يبقى معنا كتهديد وإغراء لأنه موجود فينا جميعا.

هذا يوم مرير محزن. دعونا نحوله إلى يوم الحقيقة والأمانة والصدق.

ما أطلبه منكم اليوم هو مهمة ثقيلة الحمل، وهي أثقل بالتأكيد على العائلات التي فقد أحباؤها حياتهم. لكنني مقتنع بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتحرير أنفسنا وغيرنا من إسار الحلقة المفرغة للعنف والعنف المضاد.

## فليبارك الله أمريكا!

تبدو خطبة كهذه بعيدة الاحتمال طبعا. وما نعرفه عن طبيعة الرئيس بوش، والأهم ما نعرفه عن الفهم الذاتي لمعظم الأمريكيين، ومعظم البشر في كل مكان، يشير إلى أن مثل هذا النص يحرك قدرا هائلا من الإحباط ويحضن العنف.

لكن، حتى حين تبدو هذه «المسودة» غير واقعية، بل عبثية، الآن، فإنها لم تكن بعيدة الاحتمال كليا في أعقاب الهجمات مباشرة. كان هناك قدر كبير من مساءلة الذات. بعض المواطنين الأمريكيين أرادوا فهم من أين أتى هذا الكره؛ ولم يرغبوا في الرد العنيف. أشار العديد من الخبراء والعارفين إلى تنامي البؤس في البلدان الأفريقية والعربية بوصفه أحد أسباب الغضب والإحباط اللذين سهلا ودعما الإرهاب. وقدموا الحجة على أن تحسين الأوضاع اليائسة للعديد من البشر في البلدان التي تعمها الفوضى وتخضع لحكومات قمعية يمثل خطوة غيرية تعبر عن الاهتمام بالآخرين، ولا تتوافق مع أنبل التقاليد التراثية للشعب الأمريكي فقط، بل مع مصالح الأمة السياسية والاقتصادية أيضا. ومثلما قال أحدهم لي (وفضل عدم ذكر اسمه) بعد الحادي عشر من سبتمبر: «المفارقة في القصة أن التعاطف مع الضعفاء والجياع والمسحوقين الذي نعرفه من

الكنائس والكنس والمساجد سيصبح مفهوما بارزا في السياسة العملية والواقعية الأمريكية».

لكن الحقيقة المحزنة أن الإدارة في واشنطن لم تمنح نفسها الوقت الكافي للتفكير بالبدائل؛ ولم تسمح للشعب الأمريكي بالتفكير بالتأثيرات البعيدة المدى لسياسات الرد العنيف. فبعد مضي أقل من أسبوع على الحادي عشر من سبتمبر كانت «الحرب على الإرهاب» في طور التخطيط النهائي وعلى وشك التنفيذ. ولم تمض سنة حتى كانت إدارة بوش تروج لغزوها المحتوم للعراق أمام الشعب الأمريكي بوصفه ضرورة لا بد منها بسبب صلات صدام حسين المزعومة مع القاعدة وامتلاكه المزعوم (أيضا) لأسلحة دمار شامل. وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الصفحات (تشرين الثاني / نوفمبر 2005)، يبدو توسيع هذه «الحرب» لتشمل إيران خيارا بعيد الاحتمال لكن ليس مستحيلا، وسقطت السياسة الدولية تحت سطوة الإرهاب ومحاربة الإرهاب، في حين انتشر التفاوت الاقتصادي والاجتماعي، وأهمل تعاظم تأثير التغير المناخي.

قد يبدو من السذاجة الإشارة إلى أن مواطن الضعف تمثل عاملا مفتاحيا في سياسة الدول[2]. ولسوف أتناول هذا المفهوم في الفصول اللاحقة. لكنني أرغب هنا في توكيد حقيقة أن مواطن الضعف لا تعد شيئا مقيتا؛ فهي قدر محتوم وجزء أساسي من الحياة ذاتها. الموتى وحدهم يتمتعون بالحصانة التامة والمناعة الكاملة (على الأقل أمام هجمات الأحياء). فنحن البشر، مع جميع الكائنات الحية الأخرى، نعيش اعتمادا على قدرتنا على الشعور والإدراك والمشاركة. ومواطن ضعفنا تجعلنا معرضين للدوافع المفيدة والضارة. وهي تمكننا من اختبار ذرى وأعماق

الحب، إضافة إلى بواعث الغضب والكره والشك. أشد ما نحتاج إليه هو أكثر ما نخاف منه. وحين نعترف بأن مواطن الضعف تصلنا مع باقي البشر أجمعين ـ بل مع المخلوقات الحية كلها ـ يمكن أن تصبح مفهوما هاديا يرشد محاولاتنا لإيجاد أنظمة للأمان. مواطن الضعف فينا هي النقطة المرجعية الجوهرية لفهمنا للمساواة والعدالة بين البشر: فمطلبنا الأساسي هو أن يكون لكل إنسان الحق في تلقي الرعاية الصحية، والعيش في ظروف آمنة، والحصول على التعليم والوظائف التي توفر مستويات معيشية لائقة، وتكوين أسرة، والعيش والموت بكرامة. إن قبول مواطن الضعف بوصفها عاملا أساسيا للشرط الإنساني يكون الركيزة المؤسسة لحقوق الإنسان وسلامة المخلوقات كافة.

الذين يريدون أن يتمتعوا بالمناعة التامة والحصانة الكاملة يجب أن يجعلوا أنفسهم غير قابلين للاختراق. وبحثهم عن المناعة الحصينة التي لا تقهر يؤدي إلى إحاطة أنفسهم بدرع ميتة من العواطف المخدرة والعطالة الفكرية. وفي حين يكبتون شعورهم بانعدام الأمان ويكبحون حاجاتهم، فإنهم يجبرون على تركيز قواهم كلها على إبعاد الأعداء الحقيقيين والمتخيلين. وهذا يؤدي إلى تبني مفاهيم مغلوطة عن الأجنبي، الآخر، وإلى إحساس مشوه بالهوية. أما العاقبة فهي تضييق قنوات الاتصال والتبادل وانحطاطها إلى مستوى المدركات الثنوية للمشكلات والأساليب التصادمية للتعامل معها.

ما علاقة هذه الاعتبارات والأفكار كلها بالحادي عشر من سبتمبر؟ لسوف أسلط الضوء على جانبين اثنين: أولا، فشل أمريكا الرسمية، إضافة إلى أوروبا، في فهم الرسالة الرمزية للهجمات الإرهابية؛ ثانيا، منع هذا

الفشل للولايات المتحدة وحلفائها من إدراك الفرصة التاريخية السانحة لاستبدال سياسة ردة الفعل العنيف المهيمنة بسياسات المصالحة والتسوية. بدلا من ذلك، عمقت الحرب على الإرهاب القطيعة (و«التقطيع») بين الدول الغربية والعالم العربي. وهيجت العداوات بين إسرائيل وجيرانها العرب. وخدمت كذريعة تبريرية لقمع الحكومة الروسية للشيشان. فضلا على ذلك، قسم هذا «التقطيع» المواطنين الأمريكيين بطرق غير مسبوقة، ووسع الهوة الفاصلة بين البلدان الأوروبية والولايات المتحدة. ويبدو العالم، بعد أربع سنين من الحادي عشر من سبتمبر، أقل أمانا وأمنا من حاله قبله.

## الرسالة الرمزية للهجمات

صدمنا جميعا، في كل مكان من العالم، بالحالة التي وصل إليها الإرهاب الدولي من حسن التنظيم. ومن الواضح أن الهجمات على برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك وعلى مبنى البنتاغون، والمحاولة المجهضة للهجوم على البيت الأبيض (من المرجح أن الطائرة التي قامت بالرحلة رقم 93 وأسقطت قرب شانكزفيل بولاية بنسلفانيا كانت تستهدف البيت الأبيض) قد نسقت بذكاء مرعب. ولم تكن النتائج صادمة بسبب نجاعتها الفتاكة فقط بل بسبب رسالتها الرمزية.

أحسب أن البرجين التوأمين لا يجسدان معنى رمزيا خاصا لمعظم الأمريكيين؛ ولا يتمتعان بأهمية دلالية خاصة في نظر معظم الأوروبيين. فهما مجرد موقع جاذب للسياح في نيويورك؛ ومركز من العديد من المراكز الإدارية للاقتصاد المعولم باطراد بالنسبة للمصرفيين والمديرين. لكن فيما يتعلق بملايين الناس في ما يسمى بالعالم الثالث، يجسد البرجان

رمزا لـ«نظام عالمي» اقتصادي جلب عليهم الخراب والبؤس والحرمان، وأدى إلى ارتفاع معدلات وفيات أطفالهم، ونزوح ملايين اللاجئين عن أوطانهم، وانتشار الاستغلال والإذلال والمهانة.

فيما يتصل بالبنتاغون، لا يعده الكثيرون في الولايات المتحدة وأوروبا سوى مبنى ضخم خماسي الأضلاع يشبه شبكة العنكبوت، وتجسيد للقوة العسكرية. لكنه يعد للملايين في أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي وآسيا والمحيط الهادي قلعة حصينة للقوة العظمى الكلية الحضور التي لا تقهر. ويمثل في نظرهم مركز القيادة للحروب الصغيرة والكبيرة، والعمليات السرية والعلنية، التي استعرضت عبرها الولايات المتحدة عضلاتها المفتولة بطرق لا يمكنهم نسيانها: في كوبا أو غواتيمالا أو نيكاراغوا، في بنما أو كولومبيا أو تشيلي ـ كم سببت هذه التدخلات و«حملات زعزعة الاستقرار» من دمار وخراب وإذلال وكره؟ الصور ذاتها تظهر في إفريقية. والقدرة المطلقة للبنتاغون اكتسبت أخيرا حضورا كابوسيا في البلدان العربية. ما سبب هذا القدر الهائل من الغضب والكره ليس الغليل الذي لا يرتوي للنفط، ولا الحربان المدمرتان على العراق، ولا الدعم اللامشروط لإسرائيل. بل إن تجربة الإذلال والمهانة والإضعاف والإخصاء هي التي تصرخ طلبا للثأر.

فشل معظم السياسيين في أوروبا في إدراك وتمييز هذا الجانب المعتم من تاريخ المواجهات بين القوى الغربية والبلدان العربية/ الإسلامية. فهو يعود في جذوره إلى الحروب الصليبية، وإلى ما دعوته آنفا «تأويل الإذلال». تكثف واشتد واحتد خلال حقبة الاستعمار الإنكليزي والفرنسي؛ ثم تعمق أخيرا بسبب دعم الولايات المتحدة المفتوح مثلا للحكومات الفاسدة . تاريخ

الإذلال والمهانة هذا أضعف الإحساس بالشرف والكرامة لدى العديد من المسلمين رجالا ونساء.

والآن، انظروا، ها قد تهاوى البرجان! والبنتاغون، القلعة الحصينة التي لا تخترق، أصيب في مقتل. من المؤكد أن الناس في شتى أرجاء العالم حزنوا على الأبرياء الذين قضوا في الكارثة، وتعاطفوا معهم ومع عائلاتهم لأنهم يعرفون معنى أن تكون مكشوفا وضعيفا ومعرضا للتفجيرات والمذابح. لكن في الوقت ذاته، شعر الكثيرون منهم برضى خفي وسرور مكتوم. فقد عانى الأمريكيون الجبابرة، المتعالون المستكبرون، ولو مرة واحدة ما عانوه مرارا وتكرارا. ما أحسوا به يمكن تلخيصه بعبارة قاسية: الهجمات أصابت الأفراد الأبرياء، لكنها أصابت أيضا أمة ليست بريئة من استخدام قوتها وجبروتها.

من منظور هؤلاء الذين تعرضوا للإذلال والمهانة من الغرب ـ خصوصا الولايات المتحدة ـ لم تكن الهجمات على البنتاغون والبرجين التوأمين إعلان حرب ولا بداية «حقبة جديدة»؛ فهي ليست أكثر من استمرار للحرب اليومية المتواصلة التي كانوا ضحاياها منذ وقت طويل. وبرأيهم، فإن «الحرب المحدودة» التي زعزعت استقرار حياتهم عادت إلى المكان الذي انطلقت منه. فقد أرسلت الولايات المتحدة، مرارا وتكرارا، جنودها من مشاة البحرية ليخوضوا حروبها. والآن، لأول مرة، عاد هذا العنف الإجرامي ليضرب مراكز القوة الأمريكية، ويشاهده العالم كله على شاشة التلفزيون.

مثل هذا الإدراك لجريمة الحادي عشر من سبتمبر يصدم الأوروبيين، ويروع الأمريكيين. إذ يبدو هذا الرضى المكتوم نوعا من التشفي المقيت

الذي يجب تحريمه إزاء ثلاثة آلاف ضحية قتلوا في الهجمات. ومع ذلك، ثمة سبب مؤلم لمثل هذا الاستياء والغضب، وعلى الزعماء السياسيين في أقوى أمم الأرض التمتع بالحكمة الكافية لأخذه بعين الاعتبار. فكثيرا ما قيل إن هناك صرخة تطلب العون في كل انتحار. فأي نوع من الصرخة ظهر في هجمات الحادي عشر من سبتمبر الانتحارية؟ هذا سؤال مغث ومشؤوم إلى حد يوجب عدم ذكره. لكن ربما كان من الحكمة الإصغاء لتلك الصرخة المكتومة.

لم يرغب معظم السياسيين في أوروبا برؤية هذه الدلالة الرامزة؛ بل ركزوا أبصارهم على بعد رمزي مختلف للهجمات الإرهابية. وحين تحدث المستشار الألماني شرويدر، باسم غالبية الألمان، عن «إعلان الحرب على العالم المتحضر برمته»، لم يعبر عن سوى الاشمئزاز والرعب. وصرح زعماء البلدان الأخرى باعتراضهم واحتجاجهم بأساليب مشابهة. لكن ما هو بالضبط «إعلان الحرب» هذا، وما الذي قصده المستشار الألماني حين أشار إلى «العالم المتحضر»؟

من المؤكد أنه كان يعني الرعب الذي شعر به المواطنون المتحضرون حين واجهوا أشخاصا مستعدين للموت في سبيل قتل الآخرين. وهذا يناقض فهمنا لحرمة الحياة. فهنالك اتفاق أكيد بين جميع الشعوب المتحضرة على وجوب عدم التضحية بالنفس البريئة كوسيلة لتحقيق أي غاية، خصوصا حين يكون الدافع التطرف المتزمت المتجرد من الإنسانية. ثمة جانب آخر يستفز مشاعر الاشمئزاز والرعب تجسده حقيقة أن الطائرات تحولت، مع طاقمها وركابها، إلى قنابل ضخمة. فحضارتنا ترتكز على الحركة الآمنة والموثوقة، حيث تمثل الطائرات رموز الموثوقية والسيطرة المتألقة. وأولئك

الذين يسافرون بالطائرات بحاجة إلى الثقة بأنهم يصلون إلى مقصدهم المرغوب، لا إلى موتهم المحتوم.

لكن فظاعة الهجمات يجب ألا تحجب عن عيون زعمائنا السياسيين الحقيقية المحزنة بأن عالمنا «المتحضر» ليس متحضرا ـ بل وحشي وهمجي ـ للأغلبية الساحقة من شعوبه. وأظهرت ردود الفعل على الحادي عشر من سبتمبر في الغرب نوعا من عمى البصيرة المنهجي. فنحن في أوروبا وأمريكا نرغب عن الاعتراف بأننا نتحمل المسؤولية الرئيسة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية غير المستقرة التي خلفت شرائح واسعة من البشر في حالة من البؤس الشديد، وتركت مناطق واسعة من الأرض تعاني تدهورا بيئيا منذرا بالخطر. والولايات المتحدة – والبلدان الأوروبية بدرجة أقل ـ مسؤولة عن حقيقة أن بمقدور الحكام الديكتاتوريين وأمراء الحرب وزعماء العصابات، ومنهم بعض العرب، امتلاك جميع الأسلحة التي يستطيعون دفع ثمنها. ودون هذه الأسلحة لن يستطيعوا قيادة الحروب الأهلية الإجرامية التي يقاتل فيها حتى الأطفال.

من زود الطالبان بالسلاح؟ من قدم الدعم والمساندة لصدام حسين أصلا؟ من هي الدولة التي ترفض التوقيع على معاهدة حظر الألغام الأرضية؟

إذن، نحن نواجه هذا السؤال: كيف تتصل هذه المواقف بالمدنية وسيادة القانون اللذين كثر الحديث عنهما في العالم الحر؟ لم تترك هجمات سبتمبر وقتا لأسئلة كهذه تتعلق بنقد الذات. هنالك حزن حقيقي يعم العالم؛ واستعداد كبير لتقديم العون والمساعدة. لكن الحزن العميق داخل الولايات المتحدة سرعان ما امتصه الغضب المنطلق من الإيمان بالتفوق

الأخلاقي للذات. الأعلام الأمريكية رفرفت حيثما التفتنا. وسؤال «لماذا يكرهوننا؟» طرح في طول البلاد وعرضها؛ لكنه كثيرا ما ترافق باستفسار ينذر بالشؤم: «كيف نعاقب كل من يظهر الكراهية لنا؟». الأجوبة الدقيقة التي احتاجت إلى تصريح منطوق اجتاحها الرعد المدوي الألفي لـ«ترنيمة معركة الجمهورية»، التي تكرر غناؤها مرارا في مناسبات ذكرى الحادي عشر من سبتمبر. وغدا إنشاد «فليبارك الله أمريكا» في ملاعب البيسبول في شتى أنحاء البلاد (وهي ممارسة ابتدأت في نيويورك بعد الحادي عشر من سبتمبر تخليدا لرجال الشرطة والإطفاء الذين قضوا في الأحداث) ثابتا دائما يسبق جميع مباريات البيسبول؛ وحقيقة ترديدها مع النشيد الوطني تعد تعبيرا آخر عن الدين المدني الأمريكي.

الاستعجال المتهور الذي حشد به الرئيس بوش الأمة لـ«الحرب على الإرهاب» يظهر انبعاث إحساس أمريكا المسيحاني بالرسالة. لم يتح لأحد الوقت الكافي للتفكير في تجربة انكشاف مواطن الضعف وهل تغل رسالة إيجابية أم لا. فقد صرخ قلب أمريكا المكلوم مطالبا بالثأر ـ ونال ثأره.

هذه الاستجابة للهجمات الإرهابية تفسر التآكل السريع للتأييد العالمي لاندفاع الولايات المتحدة إلى الحرب. إذ لم تمض سنة واحدة على الحادي عشر من سبتمبر حتى عمت المظاهرات الحاشدة العالم منددة بخطط إدارة بوش للذهاب إلى الحرب على العراق. وكان هذا الشك المنتشر بأمريكا واحدا من الأشياء «الجديدة» المحزنة التي أفرزها الحادي عشر من سبتمبر.

## بؤرة الدمار في نيويورك

الصور المنشورة عن بؤرة الدمار في نيويورك لا تعد ولا تحصى. فقد ظلت الأطلال الكئيبة للهيكل الإسمنتي المتداعي للبرجين التوأمين على حالها طوال شهور. وسافر الرجال والنساء من كل مكان إلى نيويورك، ومنهم العديد من السياسيين، للتعبير عن حزنهم وتعاطفهم مع الذين قضوا في هذا الموقع. وفي العديد من العائلات والكنائس ـ ومنها كنيستي ـ صلى الناس من أجل العائلات المفجوعة وجمعوا التبرعات لها. وظلت صحيفة نيويورك تايمز طوال أسابيع تكتب عن كل ضحية وتحاول إعادة بناء قصتها وظروف موتها.

والآن، بعد زهاء خمس سنين، ما زال الجرح مفتوحا بين ناطحات السحاب المحيطة بما دعي بـ«بؤرة الدمار». لكن خطط بناء برج جديد تجري على قدم وساق، وسوف يكون أكثر ارتفاعا وقدرة على لفت الأنظار من البرجين التوأمين. والتصميم الذي وضعه المهندس المعماري ليبسكند سوف يترك مساحة مفتوحة لبؤرة الدمار، مساحة تخلد ذكرى الذين أُردوا هناك في الحادي عشر من سبتمبر 2001.

ما الذي سيتذكره الناس؟ ما هي وظيفة وغرض ذاك النصب التذكاري؟ هل يكون للندب والتفجع أو مسرحا لتأجيج الغضب؟ هل يوفر الحيز المطلوب لتذكر موت ثلاثة آلاف إنسان إضافة إلى البشر الآخرين الذين ماتوا ميتة مروعة في الأماكن الأخرى التي يعمها الحزن والألم؟ فضلا على ذلك كله، هل يقام نصب تذكاري في بوبال في الهند حيث قضى ستة عشر ألف إنسان نتيجة انفجار غاز سام في مصنع تملكه شركة

يونيون كاربايد الأمريكية؟ أو هل يقام نصب لتذكر الدمار الذي أحدثته الصواريخ التي أطلقها الرئيس كلينتون على مصنع الشفاء للأدوية في السودان (في آب/ أغسطس 1998)؟[3].

بكلمات أخرى، هل تؤدي طريقة تذكر الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة إلى تعزيز التراحم والتعاطف مع العديد من أشكال المعاناة التي توجع البشر في شتى أرجاء العالم؟ هل تكون شاملة بما يكفي لتضم آلام الضحايا في الأماكن الأخرى؟ أم تكون حقا حصريا مخصصا لضحايا أمريكا فقط؟ مثلما تبدو الحالة حاليا، فإن الخيار الأخير هو المرجح. وكأنما الهجوم على البرجين التوأمين يعد جريمة فريدة واستثنائية لا يمكن مقارنتها بالجرائم الأخرى. هذا النوع من التذكر الانتقائي الحصري سوف يحول نصب تخليد الحادي عشر من سبتمبر إلى ضريح لجرح أمريكا، مصمم لإذكاء نيران الغضب والدعوة إلى الانتقام . وإذا سار الأمر في هذا الاتجاه، سوف تشجع بؤرة الدمار في منهاتن ذكرى انتقائية مختارة وتعمق تأويل الإنكار الذي اتبع مشروع أمريكا المسيحاني كظله المشؤوم.

دعونا نأخذ نظرة عن قرب. انطلقت فكرة «بؤرة الدمار» بوصفها تعبيرا عسكريا تقنيا يشير إلى النقطة التي توقع فيها القنبلة أفدح الدمار وأكثر الضحايا. واكتسب التعبير معنى خاصا في تحديد موقع شعاع الدمار للقنابل الذرية، ولذلك شاع استعماله حين أسقطت القنبلتان الذريتان على هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين في آب/ أغسطس 1945. هذا هو السياق الثقافي الأصلي لـ«بؤرة الدمار». ولذلك فإن مقارنة الطرق المتباينة التي يجري عبرها تذكر بؤر الدمار تكشف الكثير.

في الفصل الرابع ذكرت قصة محاولة معهد سميثسونيان لإقامة معرض بمناسبة الذكرى الخمسين لقصف هيروشيما وناغازاكي. واجه المعرض معارضة عنيدة، خصوصا من مجموعات المحاربين القدماء. والحجة المقدمة أشارت إلى أنه يؤيد اليابان ويلحق العار بالجنود الأمريكيين. كتب الصحافي جورج ويل يقول إن المنظمين «معادون لأمريكا». وأصدر مجلسا الكونغرس كلاهما قرارين يدينان المعرض(4). وبعد العديد من المنازعات والمجادلات الخلافية، قرر المعهد التخلي عن المشروع برمته. أما المعروضات الباقية فكانت طائرة «اينولا غاي»، ولوحة معدنية، وشريط تسجيل لحديث طاقم الطائرة. ولم يأت أحد قط على ذكر المدينتين المستهدفتين والقتلى الذين سقطوا فيهما. وفي الحقيقة، كان المطلوب عدم إظهار أي علامات دالة على معاناة اليابانيين في المعرض.

هنالك صلة جامعة بين إجهاض خطة معهد سميثسونيان عام 1995 وإقامة النصب التذكاري في «بؤرة الدمار» في نيويورك. فكلاهما يجسد مثالا على التذكر الانتقائي الذي تمليه الوطنية الشوفينية المتزمتة والاعتقاد بالبراءة البطولية الخارقة.

## بؤرة الدمار في درسدن

قد يشعر العديد من الأمريكيين بأن ذلك هو رد الفعل الوحيد المناسب لأي هجوم دموي شنيع مثل هجوم الحادي عشر من سبتمبر. لكن وفقا لتجربتي كألماني، أرغب في تقديم الحجة على إمكانية اللجوء إلى ردود أفعال مختلفة اختلافا بينا عبر رواية قصة كنيسة سيدتنا العذراء في درسدن. ففي الثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر 2005،

أعيد تكريس هذه الكنيسة المزخرفة الشهيرة (كثيرا ما عدت أجمل كنيسة بروتستانتية في ألمانيا) للعبادة بوصفها «مكانا للتذكر» و«مركزا للمصالحة». الكنيسة تذكرة معبرة بقوة عن «بؤرة دمار» أخرى، ظهرت في 13 شباط / فبراير 1945 حين أغارت القاذفات البريطانية والأمريكية على مدينة درسدن (على نهر الالبا)، التي اشتهرت بعمارتها البديعة وكنوزها الفنية النفيسة. أطلق القصف عاصفة نارية كاسحة. وقتل عشرات الألوف من الأطفال والنساء والرجال؛ وفي الحقيقة لن يعرف أحد أبدا العدد الدقيق للقتلى لأن المدينة كانت مكتظة باللاجئين (بعض التقديرات تشير إلى مئتي ألف ضحية، لكن يبدو أن العدد مبالغ فيه). تحول مركز المدينة القديمة (فلورنسا نهر البا) إلى أنقاض وخرائب. وظلت بؤرته المركزية تحترق طوال يومين اثنين؛ ثم انهارت وتحولت إلى كومة من الركام أيضا.

ظل المشهد على حاله بضعة عقود من السنين. ولم يكن لدى الزعماء الشيوعيين لجمهورية المانيا الديمقراطية السابقة نية في إعادة بناء هذه الكنيسة الرائعة ـ حتى لو توفرت لديهم الوسائل والإمكانات الضرورية. وقفت قبل خمسة وعشرين عاما أمام الأطلال: نمت أشجار البتولا بين الأنقاض، وخرجت أغصانها من الفجوات الفاغرة التي كانت نوافذ ذات يوم. في عام 1982، بدأ دعاة السلام الشباب في درسدن وضع الشموع عند الموقع. وفي السنوات التالية أصبح مكانا للتذكر وبؤرة لنشاط حركة السلام، التي كانت تتعرض لمضايقات مستمرة من الحكومة الشيوعية ومؤسساتها وعملائها. وفي عام 1990، بعد سقوط جدار برلين، قدمت مجموعة من المواطنين طلبا لإعادة بناء كنيسة سيدتنا العذراء. لقي

الطلب قبولا واسعا؛ وأسهم في المشروع أشخاص من مختلف بلدان العالم. وبعد أربع سنين، بدأت عملية إعادة البناء البالغة الصعوبة، والآن عادت الكنيسة الرائعة إلى مكانها المعهود.

لأكثر روعة من البناء ذاته قصص المصالحة التي حدثت خلال عملية إعادة البناء. وسوف أورد مثالين اثنين. فقد أقام المسيحيون في درسدن وإخوانهم في مدينة كوفنتري الإنكليزية اتصالات وثيقة طوال سنين عديدة. وكانت كوفنتري قد تعرضت لغارات عنيفة شنتها القاذفات الألمانية عام 1941. وساعدت مجموعات الشباب الألمان في بناء كاتدرائية جديدة شيدت قرب أطلال أخرى تعود إلى القرون الوسطى. وانضمت كنائس درسدن إلى «جمعية مسامير الصليب» التي أنشئت في كوفنتري كشبكة لعقد المصالحة. ثم نشطت مجموعة «درسدن ترست»، بقيادة الدكتور الان رسل (الذي اهتم دوق كنت برعايته اهتماما كبيرا)، وجمعت مبلغ 750 ألف جنيه إسترليني ـ خصص جزء كبير منه لبناء كرة تحمل الصليب بارتفاع تسعة أمتار (بمحض الصدفة، فإن الرجل الذي قام بمعظم العمل في بناء هذا الصليب الرائع، مستخدما تقنيات القرن الثامن عشر الأصلية بقدر الإمكان، هو الان سميث ابن أحد الطيارين الذين قصفوا درسدن بطائراتهم[5].

ثم هنالك قصة سكان بلدة غوستين البولندية. ففي عام 1942، ألقي القبض على مجموعة سرية معظم أفرادها من شباب البلدة الذين كانوا يخوضون حرب عصابات ضد القوات النازية. ثم أعدم اثنا عشر منهم في إحدى ساحات درسدن العامة؛ والذين لم يطلق عليهم الرصاص لأنهم لم يبلغوا السادسة عشرة وضعوا في معسكرات الاعتقال ونجوا من الموت.

بعد الحرب، عاد بعضهم إلى درسدن لزيارة قبور رفاقهم. وبدأت تتشكل صلات بين الكنائس في غوستين ودرسدن. وعرف الزوار البولنديون معاناة أعدائهم القدامى. وحين سمعوا عن خطط إعادة بناء كنيسة سيدتنا العذراء، قرروا المساهمة في المشروع. خصص مجلس مدينة غوستين مبلغا من المال لنحت صخرة على شكل لهب، ضمت بعد ذلك إلى المبنى كرمز للمصالحة بين البولنديين والألمان.

نظرا للعدد المحدود من الألمان الذين يترددون إلى الكنائس، لم تكن درسدن بحاجة ماسة إلى كنيسة إضافية. لكن كنيسة سيدتنا العذراء تبنت رسالة خاصة، تتجاوز حدود المدينة وحتى حدود المانيا: رسالة مصالحة ترتكز على التذكر العميق. أصبحت الكنيسة مكانا لا يزوره السياح فقط بل طلاب المدارس وجماعات الشباب من الأنواع كلها. وهناك، يعرفون عن الماضي، والذنب والمعاناة، ويأخذون لمحة عما يمكن إنجازه بالمصالحة والالتزام المشترك. أما هدف الكنيسة في برامجها فهو التحدث إلى الناس في مختلف بلدان أوروبا ـ وخارجها ـ عن إمكانية تحويل مواقع العار والألم إلى مراتع للبهجة والأمل.

## بؤرة الدمار وثقافات التذكر

يمكن أن نعد كنيسة سيدتنا العذراء تعبيرا رامزا لثقافة التذكر العميق الذي يسم التاريخ الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية. فالتأثير بعيد الأمد لتلك «الحرب الأوروبية العظمى الثانية» متميز بوضوح عن الحرب العالمية الأولى. وفي حين أن معاهدة فرساي عام 1919 أملتها برأيي «سياسة الرد العنيف»، فإن الدروس المستفادة من دمار الحرب التي امتدت بين عامي

1939 ـ 1945 استرشد بهديها مزيد من المناهج والطرق المتكاملة (التي لم تستبعد كما ذكرت مسألة الذنب). أما الجيل التأسيسي من الزعماء السياسيين الذين عملوا في سبيل الجماعة الأوروبية في العقد التالي للكارثة المروعة، مثل روبرت شومان وكونراد اديناور وغيرهما، فقد خرج من فظائع المذبحة الأوروبية بقناعة راسخة تؤكد الحاجة إلى التغلب على العداوات القديمة بواسطة نوع من المصالحة السياسية.

من المؤكد أن العديد من الزعماء السياسيين لم يعودوا اليوم يتبنون هذا الالتزام العميق بالمصالحة. فالجماعة الأوروبية تبدو بنظرهم قاعدة للمصالح الاقتصادية فقط. ومن ثم لا توجد حاجة ملحة داخل أوروبا إلى الإبقاء على حيوية ونشاط رؤية أكثر اتساعا وجوهرية: الجماعة الأوروبية كمنطقة سلام. أوروبا متخمة بـ«بؤر الدمار»؛ قارة مترعة بقصص الانتصارات العبثية والمعاناة التي تعجز عن وصفها الكلمات. مقتل ملايين البشر، ونزوح ملايين اللاجئين، ودمار العديد من المدن ـ أمور ما زالت حية في ذاكرتنا الجمعية. ومع أن الجميع متفقون على أن محاربة هتلر حتى النهاية كانت أمرا ضروريا، إلا أن مشاعر الارتياح تجاه الانتصارات التي حققها الروس والبريطانيون والفرنسيون لم تكن قوية، خصوصا على مستوى القاعدة الشعبية. فالأثمان التي دفعت كانت باهظة جدا.

في الولايات المتحدة، ما يزال معظم الأمريكيين يميلون إلى الاعتقاد بأن الذهاب إلى الحرب يعني العودة منها بنصر مجلجل؛ في حين يؤمن معظم الناس في أوروبا بأن من المستحيل كسب شيء بالذهاب إلى الحرب. هذه هي النقطة التي يمكن عندها ملاحظة وجود اختلاف عميق في ثقافات التذكر بين الأوروبيين والأمريكيين. فالناس على هذا الجانب من الأطلسي

يتوصلون ببطء إلى فهم مفاده أن الإنكار لا يساعدهم. والصدق في التعامل مع الماضي والتعاطف مع الذين حملوا الأعباء على كواهلهم جزء من عملية مداواة جروح الانفصال والشك. أنا لا أقول إن ارتقاء شعوب أوروبا نحو تحقيق جماعة متحدة مستدامة قد اكتمل. فسوف تظهر على الدوام تحديات جديدة وعقبات كأداء، من الداخل والخارج؛ ولربما يثبت أن العلاقات مع الدول الأفريقية ودول الشرق الأوسط تحظى بالأولوية من حيث الأهمية. لكن على الرغم من جميع هذه التحفظات، إلا أنني على قناعة بأن الجماعة الأوروبية تجربة تاريخية وحتى غير مسبوقة في مجال سياسة المصالحة(6).

لا يوجد بالتأكيد سبب للشعور الانتصاري في هذه العملية. إذ تبدت حالة منذرة بالخطر تذكر بالتردد والتنافس بين البلدان الأوروبية في الطريقة التي أساءت فيها التعامل مع الحروب الأهلية بين شعوب البلقان بعد تفكك يوغسلافيا. المثال الآخر على التفرق والتشتت تجسده مقاربة البلدان الأوروبية للحرب على العراق. فقد اختار بعضها الانضمام إلى «قوات التحالف» بقيادة الولايات المتحدة، في حين قرر غيرها، خصوصا فرنسا وألمانيا، عدم التورط (المباشر). هنالك الكثير مما يجب فعله، وربما لن يرتقي الأوروبيون وزعماؤهم السياسيون إلى مستوى التعلم من دروس تاريخهم وأخذ العبر منها.

هنالك مراقبون أمريكيون ينكرون صلة ما قلته للتو بالسياق عبر تقديم الحجة على أن الأوروبيين لم يتمكنوا من السعي وراء مناوراتهم الاجتماعية والسلمية إلا لأن النسر الأمريكي الكاسر وفر لهم الحماية من شرور العالم. مايكل هيرش، مثلا، بلغت به الجرأة حد إعلان ما يلي:

> حين نضع جانبا لحظة غزو العراق المتهور، نجد أن أمريكا تنفق على الدفاع أكثر من باقي بلدان العالم الصناعي مجتمعة، لا لأن الولع بالحرب أو النزعة العسكرية متأصلان فيها، بل لأنها اليوم أكثر من مجرد «القوة العظمى الوحيدة». فهي تمثل عامل الاستقرار ودعامة التثبيت للنظام الدولي. وقوتها تغطي كل منطقة على الكوكب، وهي توفر مقابض التحكم التي تكبح الدول المولعة بالحرب وسباقات التسلح في المناطق الممتدة من شرق آسيا إلى أمريكا اللاتينية، وتمكن العولمة من السير قدما.. لكن، فيما يتعلق بالعديد من الأوروبيين في حقبة ما بعد الحرب الباردة، كانت هذه البنية المثبتة للاستقرار في القوة الأمريكية خفية إلى حد أنها لا تستحق الملاحظة. لماذا يظنون أن بمقدور حكوماتهم إنفاق هذه المبالغ الضئيلة على الدفاع (وهذا يتيح لها تقديم الدعم لدولة الرعاية الاجتماعية الأوروبية)؟ ومثلما يقول الأطفال في رواية آنا كارنينا «لا حاجة بنا للتفكير بذلك، فهو متاح ومتوفر لنا»(7).

هنالك الكثير من الأخطاء الذريعة في مثل هذا التصريح. فأكثر الجوانب المثيرة للسخرية في منطق هيرش وصفه الالتزامات بدولة الرعاية الاجتماعية في أوروبا بأنها لعبة أطفال ليست ممكنة إلا بوجود الأب الكبير في واشنطن، الذي يتمتع بما يكفي من الغيرية ليؤدي العمل القذر (ألا يعلم هيرش أن بناء أنظمة «دولة الرعاية الاجتماعية» هذه كان باهظ التكلفة وقضى في سبيله آلاف النقابيين والعمال منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي قبل وقت طويل من ارتقاء الولايات المتحدة

إلى مرتبة القوة العظمى؟). إذا أردنا أن نوسع حجة هيرش إلى نتيجتها المنطقية، نجد أن الأوروبيين هم المسؤولون عن بؤس الأمريكيين الأفارقة في نيواورليانز لأن واشنطن بحاجة إلى تقديم الدعم (غير المباشر) إلى الألعاب «الاشتراكية» المسرفة ـ ولذلك لا يتوفر لها ما يكفي من المال لرعاية الفقراء داخل حدود الولايات المتحدة.

الأمر المهم أن البلدان الأوروبية تعلمت نتيجة تجاربها مع العديد من «بؤر الدمار» الدرس الذي يؤكد أن سلامة أداء المجتمعات لوظيفتها تعتمد على الاستقرار الاجتماعي وعلاقات العمل العادلة بقدر اعتمادها على مؤسساتها العسكرية. وفيما يتعلق بالولايات المتحدة من ناحية أخرى، تحولت تجربة الرابح العالمي إلى شرك. فتحذير الرئيس ايزنهاور النبوئي من خطر «المجمع العسكري ــ الصناعي» ونزوعه إلى أن يصبح عاملا اقتصاديا شموليا كان صائبا وفي محله[8]. ومن المحزن أن هيرش يصيب حين يعترف أن الولايات المتحدة تنفق من المال على التسلح أكثر من البلدان الصناعية مجتمعة. لكنه يخطئ في السبب الذي يقدمه: فكرته القائلة إن «تمكين العولمة من السير قدما» ضرورة تاريخية مجرد دعاية تحمل صورة أمريكا كأمة منقذة إلى حدها العسكري الأقصى. إذ يستحيل، كما يقترح هيرش «أن نضع جانبا لحظة غزو العراق المتهور»، وكأنه «هفوة» بسيطة يجب إهمالها عند صياغة المعادلة الكبرى. فهو جزء لا يتجزأ من الفتوحات التوسعية العالمية للإمبراطورية الأمريكية. فما الذي يمنع أي مراقب خارجي من التفكير بأن هذا الغزو مثال صارخ على تغذي المجمع العسكري ــ الصناعي الأمريكي على ذاته؟ يقول الرئيس السابق جيمي كارتر: «سباق التسلح الوحيد هو الذي نخوضه مع أنفسنا»[9].

في كتاب «أمريكا على حق أم باطل» يثير المراسل الصحفي والباحث البريطاني اناتول ليفين السؤال التالي: «لماذا قام البلد الذي سنحت له بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية الفرصة لإيجاد تناغم بين جميع دول العالم الكبرى ـ ومنها الدول الإسلامية ـ يناهض الإرهاب الثوري الإسلامي، باختيار سياسات قسمت الغرب، وزادت استعداء العالم الإسلامي، وعرضت أمريكا نفسها إلى أخطار داهمة تتعاظم باطراد؟»[10]. يحتاج مثل هذا السؤال إلى إجابة دقيقة. وتكمن إحدى الإسهامات في الجواب في قضية ناقشتها في هذا الفصل: كيف يمكننا التعامل مع مواطن الضعف التي تعرضنا للخطر؟ ما هي العلاقة بين تجارب التعامل مع مواطن الضعف وثقافات التذكر والخيارات السياسية ـ العسكرية المستمدة منها؟ مثلما يقول ليفين ضمنا (وكما أكدت «مسودة الخطبة الرئاسية» في بداية هذا الفصل)، منح الحادي عشر من سبتمبر الولايات المتحدة فرصة إقامة نوع جديد وشامل من «التناغم» العالمي المناهض للإرهاب. لكنها أضاعت الفرصة. الغرب مقسم، ويمكننا الآن ملاحظة مستويات جديدة من العداء لأوروبا وأمريكا. أما استعداء البلدان الإسلامية فقد بلغ درجة عالية من الكثافة والحدة. والولايات المتحدة في بحثها عن المناعة والحصانة أصبحت أقل أمانا من حالها في الماضي.

لن يكفي وضع اللوم على عاتق الرئيس بوش وإدارته فقط. صحيح أن الإغراء قوي، وسوف يزداد جاذبية مع تفاقم الوضع في المستنقع العراقي. لكن ذلك سيكون نوعا من التضحية بكبش فداء، ويمنعنا من معاينة القضايا الأساسية. الرئيس السابق جيمي كارتر أشار إلى أن الإدارات الأمريكية اتبعت خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية سياسات

تتناقض مع المبادئ المتبناة سابقا. وعزا هذه «الأزمة الأخلاقية» إلى «الأصولية» التي مزجت الأفكار الدينية والسياسية[11]. وهو يقترح ما يلي كعلاج:

> على حكومتنا أن تشتهر بمعارضة الحرب دون تردد، والتزام حل النزاعات بالوسائل السلمية.. يجب أن يرانا العالم كمدافعين لا نلين عن الحرية وحقوق الإنسان، بين مواطنينا وداخل المجتمع الدولي أيضا. يجب على أمريكا أن تكون البؤرة التي يمكن للأمم الأخرى كلها أن ترص الصفوف حولها لمحاربة التهديدات الداهمة للأمن وتحسين جودة بيئتنا المشتركة [12].

يبدو أن كارتر يعتقد أن الثورة الأصولية التي تمسك الآن بزمام الأمور في واشنطن يمكن مغالبتها بالعودة إلى مثل الماضي العليا، التي يصفها كما يلي:

> لقد ظل الأمريكيون دوما على حق في الفخر ببلادهم، بدءا بإعلان الاستقلال في عهد أجدادنا الشجعان وتوكيدهم أن «جميع البشر خلقوا متساوين، وأن الخالق وهبهم حقوقا لا يمكن التصرف بها، منها الحق في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة». ومنذ ذلك الحين، استغل شعبنا الموارد الطبيعية العظيمة لأمريكا، وسهولة الوصول إلى المحيطات الدافئة، والجيران الودودين نسبيا، لتشكيل «اتحاد أكثر كمالا»[13].

لكن ذلك أكثر من مجرد وصف شاعري لتاريخ أمريكا. فعلى الرغم من قيمة نقد كارتر الذاتي، إلا أنه ينخرط في عملية التذكر الانتقائي.

حيث يؤمثل الفتح الأمريكي التوسعي (أتساءل ما هو رأي «الجيران الودودين نسبيا» فيما يقوله كارتر!)، ولا يأتي على ذكر العنف المتضمن في هذا «المسعى»، ولا يتطرق إلى التعامل مع الذنب المتأصل والكره الهائل الذي تراكم في شتى أنحاء العالم ردا عليه.

إذن، لن تنجح وصفة كارتر العلاجية. فالأزمة الأخلاقية التي يشخصها أعمق بكثير، وهذه الصورة الذاتية المؤمثلة هي جزء من الأزمة. التذكر العميق يتطلب نظرة أكثر عمقا ـ وألما ـ على الجانب الخلفي المظلم لنهوض أمريكا وارتقائها. والعديد من سكان العالم ينتظرون زعماء سياسيين في أمريكا أكثر عظمة وحكمة بحيث يعترفون بسيئات الولايات المتحدة، وأكثر جرأة وشجاعة بحيث يعيدون تعريف دور أمريكا بين أمم العالم. والاعتراف بمواطن الضعف التي يتقاسمها شعب الولايات المتحدة مع شعوب العالم قاطبة سيثبت أنه طريقة أكثر صدقا وأمانة وإبداعا للتقدم إلى الأمام مقارنة بالمسعى الخداع لاكتساب الحصانة الكاملة والمناعة المطلقة. هل يوجد درس يود مواطنو الولايات المتحدة تعلمه من الطرق التي اتبعتها أوروبا للخروج من ركام وفظائع الحرب العالمية الثانية؟

# هوامش

1- انظر:

Hans von Sponeck and Andreas Zumach, Irak  Chronik eines gewollten Krieges (Kolm: Kiepenhauer und Witsch, 2003), pp. 18 - 27.

2- أدرك حقيقة أن تعبير «مواطن الضعف» تعرض للانتقاد الحاد من الباحثات النسويات. إذ يعتبرن استخدام هذا المفهوم متعمدا ومقصودا إلى حد ما، ويضمر استراتيجية «ذكورية» لإضفاء الشرعية على الظلم الجندري (النوع الاجتماعي). يمكن العثور على مثال معبر على هذا الانتقاد في كتاب سارا كوكلي، حيث قدمت الحجة على أن الفلاسفة واللاهوتيين المؤيدين للحركة النسوية بحاجة إلى اتخاذ مقاربة أكثر دقة وقدرة على الأخذ بالحسبان السلسلة الواسعة من حالات الاتكال التي يخضع لها البشر. ولذلك، لم تضع موضع المسائلة فعلا حقيقة تعبير «مواطن الضعف»؛ وهي تعترض على الافتراض السائد الذي يفرق بين مواطن الضعف الأنثوية والذكرية، وتريد السمو على خط الصدع المتخيل لكن العميق. هذا بالضبط ما فكرت فيه. ففي إدخال القراءة الإيجابية لمواطن الضعف، أريد ترسيخها كشرط أساسي لمصفوفة الحياة بجميع أشكالها على هذه الأرض.

3- James Risen, “To Bomb Sudan Plants, Or Not: A Year Later Debate Rankle,” New York Times, Oct. 27, 1999, p. AI.

لأن الضربة دمرت مصنعا ينتج أدوية مضادة للملاريا في منطقة فقيرة، رأى ويرنر دوم، السفير الألماني السابق في السودان، ملامح من إرهاب الدولة في الهجوم. انظر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Werner_Daum.

4- Robert Jay Lifton and Greg Mitchell, Hiroshima in America: Fifty Years of Denial (New York: G. P. Putman, 1995), p. xii.

5- انظر:

Hans-Eckehard Bahr, Erbarmen mit Amerika: Deutsche Alternativen (Berlin: Aufbau-Verlag, 2003), esp. pp. 84ff.

6- Michael Hirsh, «Bloody Necessary,» Washington Monthly, April 2005;

www.washingtonmonthly.com/features/20050504/.hirsh.html (accessed Nov. 20, 2005).

7- انظر:

Dwight D. Eisenhower, «Military Industrial Complex Speech, 1961» (The Avalon Project at Yale University:

http://www.yale.edu/lawweb/avalon/president/speeches/eisenhower001.htm [accessed Dec. 18, 2005]).

8- Jimmy Carter, Our Endangered Values: America's Moral Crisis (new York: Simon & Schuster, 2005), p. 199.

9- وردت في:

M. Hirsh, «Bloody Necessary,» p. 2; Anatol Lieven, America Right or Wrong: An Anatomy of American Nationalism (New York: Oxford University Press, 2004).

10- Carter, Our Endangered Values, pp. 30ff., 94ff.

11- Carter, Our Endangered Values, pp. 199ff.

12- Carter, Our Endangered Values, p. 198.